الفصل الأول

بناء جملة كان وأخواتها

المبحث الأول: بناء جملة (كان) القصيرة وأنماطها

الأفعال الناقصة (كان وأخواتها):

سُمِّيت (كان وأخواتها) بالأفعال الناقصة لأنها لا تتم بمرفوعها، وتحتاج إلى اسم وخبر، [1] وقد اختلف في دلالتها على الحدث إلى عدة أقوال:

فطائفة من النحاة يرون أنها تدل على أزمنة مجردة من الأحداث بخلاف الأفعال الأخرى، فإنها تدل على الحدث والزمن.[2]

ويرى آخرون أنها تدل على الحدث دون الزمن، ما عدا (ليس) فإنها تدل على النفي، وحُمِل عليه قول بعض العرب: (ليس الطيبُ إلا المسكُ)، ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن الصلاة: (ليس ينادى لها).[3]

والذي يترجح لدى الباحث أنها تدل على الحدث والزمن كبقية الأفعال، ماعدا (ليس) فإنها تدل على مجرد النفي ولا تدل على حدث أو زمن.

ومذهب البصريين أن (كان) وأخواتها تدخل على المبتدأ والخبر، فترفع المبتدأ اسماً لها وتنصب الخبر خبراً لها، وينسب إلى الكوفيين أن المنصوب بها حال لا خبراً، وعن الفراء أنّ المنصوب بها شبيه بالحال.[4]

والصحيح أن مذهب الكوفيين في هذا هو مذهب البصريين، فهذه الأفعال تحتاج إلى مرفوع ومنصوب، والفراء يذكر ذلك في أكثر من موطن، ولم يشر إلى أن المنصوب بها حال أو شبيهه، وقال في قوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾ [5]: «نصبت (عجبا)بـ(كان) ومرفوعها(أن أوحينا).»[6]

---

(1) شرح القواعد البصروية في النحو، لعلي بن خليل البصروي، تح: عزام عمر الشراوي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط1/2000م، (126).

(2) المسائل المنثورة، لأبي علي الفارسي، تح:شريف عبد الكريم النجار، دار عمان، م(247)، (219)، المرتجل، لمحمد بن عبد الله الخشاب، تح: علي حيدر، دمشق ط1971م، (124).

(3) شواهد التوضيح، (141)، مغني اللبيب، (571).

(4) أوضح المسالك، (231/1).

(5) سورة يونس (2).

(6) معاني القرآن،(457/1)، وانظر (84/2،83).

ويقول أبو بكر الأنباري نقلا عن الفراء: « مابرح ومازال ومافتئ بمنزلة ماكان يرفَعْن الأسماء وينصبن الأخبار.»[1]

وأما ما ذكره النحاة من أنها تدخل على ما أصله مبتدأ وخبر، فإذا صح ما قالوه من جهة المبنى، فإنه قد لا يصح من جهة المعنى، ومثال ذلك: (صار الطين خزفاً، أو صار الماء ثلجاً) فلا يصح من جهة المعنى قبل دخول كان أن نقول: الطين خزفٌ، ولا الماء ثلج.

وهذه الأفعال هي: (كان، وصار، وأصبح، وأمسى، وأضحى، وظل، وبات، ومازال، وما برح، وما فتئ، وما انفك، ومادام، وليس)، وهذه الأفعال المعدودة هي المعروفة والمشهورة، وهناك أفعال أخرى من هذا الباب في كتب النحاة وهي نادرة الاستعمال.

ومما أضافه ابن مالك (رجع)، الذي يستعمل بمعنى (صار) معنى وعملاً، قال: «وهو مما خفي على أكثر النحويين، ومنه قوله ﷺ: (لا ترجعوا بعدي كفاراً) أي لا تصيروا.»[2]

وقد استُخدِم الفعل (عاد) بمعنى (صار) في السيرة النبوية ومنه قول الضحاك بن سفيان:

فكانوا همُ المولى فعادَتْ لُؤمُهم ... عليكَ وقد كادتْ بكَ النَّفسُ تَيْأَسُ [3]

وكذلك الفعل (ارتد) يصير من أخوات (كان)؛ لأنه بمعنى (صار) معنى وعملاً، ومنه في السيرة قول ابن إسحاق: «وإنما أمر الرسول - ﷺ - بقتله لأنه قد كانَ أسلمَ، وكانَ يكتب لرسول الله - ﷺ - الوحيَ فارتد مشركاً راجعاً إلى قريش.»[4]

والزمن في التركيب (قد كان أسلم) يدل عند بعض النحاة على الماضي القريب؛ لدخول قد على الماضي، ويرى بعضهم أنها تدل على الماضي البعيد. [5]

والراجح أن الزمن النحوي وظيفة السياق، وليس وظيفة تركيب معين، وإن كان التركيب يساعد على معرفة ذلك، ولكن لا يحصر ذلك فيه. [6]

والزمن في هذا السياق هو الماضي البعيد؛ لأن بين إسلام ذلك الرجل وقتله زمنا بعيدا.

---

(1) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات،لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري،تح:عبدالسلام محمد هارون،دار المعرف ـ القاهرة،ط2، د.ت،(315)،وانظر(191،73،66،45،35).

(2) شواهد التوضيح (139).

(3) السيرة (138/4).

(4) السيرة (57/4).

(5) البرهان (305/4)، الفعل زمانه و أبنيته (29).

(6) اللغة العربية معناها ومبناها (243)، مبادئ اللسانيات،د. أحمد محمد قدور،دار الفكر ـ دمشق،ط1/ 1996م، (163).

وأما (كان يكتب) فالزمن فيه الماضي المتجدد؛ لأنّ دخول كان على المضارع تدل على تجدد الفعل في الزمن الماضي الذي قد انقطع. [1]

والشروط التي تشترك فيها هذه الأفعال لتكون عاملة هي:

«ألاّ يكون اسمها شبه جملة »[2]، وهذا الشرط إنما هو تفصيل لما صل إذ لا يمكن أن يأتي اسمها كذلك؛ لأنه عند النحاة مبتدأ في الأصل والمبتدأ لا يأتي شبه جملة.

ولا يكونُ خبرها إنشائيا، ولا يكون جملة فعلية فعلها ماض إلا (كان) فإنه يجوز أن يكون خبرها فعلا ماضيا.

ويجب مع (زال وبرح وفتئ و انفك) أن يتقدمها نفي أو شبهه، ويجب مع الفعل (دام) أن يسبق بـ(ما) المصدرية الظرفية.[3]

(1) اللغة العربية معناها ومبناها(245).
(2) النحو الوافي (546/1).
(3) السابق، (1/ 547).

أنماط بناء جملة (كان) وأخواتها القصيرة:

يتكون بناء الجملة القصيرة من الفعل الناسخ والاسم - الذي لا يكون مركباً مصدرياً ولا موصولاً - والخبر الذي يكون مفرداً، ونبدأ هنا بالنمط الأصلي للجملة القصيرة في باب كان وأخواتها.

النمط الأول: المبتدأ معرفة والخبر نكرة:

هذا النمط له فروع بحسب أنواع المعارف وهذه الفروع على النحو التالي:

1- الاسم ضمير بارز: وجاء في الشعر من هذا النوع قول أبي سفيان:

فَظَلَـــتُ عَـــدْواً أظـــنُّ الأرضَ مائلـــةً

لّمـــا ســـموا بـــرئيسٍ غيـــرِ مخـــذولِ[1]

وفي هذا البيت جاء الخبر مصدراً على معنى اسم الفاعل(عاديا) وفيه من المعنى ما ليس في (عادياً)؛ لأنه أراد أن يخبر بأنه صار عدْوا كلُّه متصلاً بعضه ببعض، وفيه مبالغة، وهو مثل: أنت سعيا، «ومعنى (أنت سعياً) يعني أنك تسعى سعياً متصلاً بعضه ببعض.»[2]

وجاء من النثر من هذا النمط قول العاص بن وائل: «يا أبا القاسم ما كنتَ جهولاً»[3]، وجاء الخبر صيغة مبالغة، وفي نفيها نفي لكل ما يصدق عليه معنى الجهل ظاهراً أو خفياً، ومن هذا النمط قول الرسول ﷺ: «ليسوا بالفرار.»[4]

وقد دخلت الباء في خبر ليس «وتدخل هذه الباء إذا كان خبر الناسخ منفيا إما بـ(ليس) غير الاستثنائية، وإما بـ(ما) مع بقاء النفي، وعدم نقضه بـ(إلا)، ففي ذلك يجوز أن تدخل الباء على الخبر بكثرة.»[5]

---

(1) السيرة (3/ 114).
(2) الكتاب (335/1).
(3) السيرة (274/1)،(327/1)،(258/3)،
(4) السيرة (346/3)، (30/4).
(5) النحو الوافي (591/1).

2- **الاسم ضمير مستتر: وجاء في الشعر من هذا النوع قول صرمة بن أبي أنس:**

فلمَّـــــا أتانـــــا أظْهـــــرَ اللهُ دينَـــــه

فأصـــبحَ مســـروراً بطيبـــةَ راضـــيا[1]

وجاء من النثر قول عبد الله بن مسعود: «إن إسلامَ عمرَ كان فتحاً، وإن هجرتَه كانت نصراً، و إن إمارتَه كانت رحمة»[2]، ومنه قول ابن إسحاق:«حتى بلغ أن كان رجلاً»[3] وكان هنا بمعنى صار.

3- الاسم اسم إشارة: وهذا النوع نادر في السيرة ومنه في النثر قول ورقة بن نوفل: «لئن كان هذا حقاً ـ يا خديجةُ ـ إنّ محمداً لنبيٌ هذه الأمة.»[4]

4- الاسم معرف بـ(أل): وقد جاء في الشعر قول سحيم عبد بني الحسحاس:

وأصـــبحتِ الثيـــرانُ صَـــرْعى وأصـــبحتْ

نســـاءُ تمـــيمٍ يبتـــدِرْنَ الصياصـــيا[5]

و (صرعى) صفة على معنى اسم المفعول، أي: مصروعة.

5- الاسم مركب إضافي: وجاء في الشعر من هذا النوع طالب بن أبي طالب:

فـــــوالله لا تَنْفَـــــكُّ نفســـــي حزينـــــةً

تمَلمَـلُ حتـى تَصـدقوا الخـزرجَ الضـربا[6]

ومن النثر قول ابن إسحاق: «وكانت حربُهم سجالاً»[7]، وقولـه:«فأصبح رسولُ الله ﷺ غادياً.»[8]

النمط الثاني: الاسم والخبر معرفتان:

ولهذا النمط فروع هي:

1- الاسم ضمير: ومنـه الضـمير البـارز الـذي جـاء اسما لـ(كـان) وأخواتهـا فـي السيرة ومنه في الشعر قول عمرو بن الأهتم:

---

(1) السيرة (125/2)، وانظر (251/2)،(60/3).
(2) السيرة (380/1).
(3) السيرة (220/1)، وانظر (154،103/1).
(4) السيرة (228/1).
(5) السيرة (274/3).
(6) السيرة (3/ 31)، وانظر (251/2)،(103/3).
(7) السيرة (45/1).
(8) السيرة (186/4).

ظَلِلْـــتُ مفتـــرشَ الهَلْبـــاءِ تَشـــتُمُني

عنـدَ الرّسـولِ فلـم تَصْـدُقْ ولـم تُصِـبِ [1]

وقول حسان:
قـــد ثَكِلَـــتْ أمُّـــهُ مَـــن كنـــتَ صـــاحبَه

أو كـــانَ مُنْـــتَشِباً فـــي بُـــرْثُنِ الأَســـدِ[2]

وفي البيت الأخير جملة الصلة (كنت صاحبه) جملة قصيرة، ويجوز أن يكون قوله (من) مبتدأ، و(قد ثكلت أمه) في موضع الخبر المقدم عليه ويجوز أن يكون مفعولاً بـ(ثكلت)، وأضمر قبل الذكر مع اتصال الضمير بالفاعل.[3]

وقد جاء في النثر من هذا النوع قول ابن إسحاق: «فكانوا أهلَ نفاق »[4]، وقول دريد دريد بن الصِّمة: «أصبحت رئيس قومك»[5]، ومما جاء فيه الاسم ضميرا مستترا في الشعر:

همـــا نَـــزَلا بـــالبَر ثُـــمَّ تَرَوَّحـــا

فـــأفلحَ مَـــن أمْســـى رفيـــقَ محمـــدِ[6]

ومن النثر قوله ﷺ: «كُنْ أبا خَيثَمةَ»[7]، وقوله ﷺ: «كن أبا ذر.»[8]

2- الاسم علم: وقد جاء من هذا النوع في الشعر قول أبي الحكم بن سعيد بن يربوع:

قـــد كـــان حمـــزةُ ليـــثَ اللهِ فاصْـــطَبري

فـــذاقَ يومئـــذٍ مـــن كـــأسِ شـــمَّاسِ[9]

ومن النثر قول ابن إسحاق: «وكانت جُرْهُمُ أصحابَ الكعبة»[1]، وقوله: «وكانت أمُّ الفضلِ تحتَ العباس.»[2]

---

(1) السيرة (222/4)، والهلباء: الدَّبُر.
(2) السيرة (333/3).
(3) الروض الأنف (21/4).
(4) السيرة (127/2).
(5) السيرة (88/4).
(6) السيرة (101/2).
(7) السيرة (174/4).
(8) السيرة (178/4)، (1 /77).
(9) السيرة (186/3).

3- الاسم اسم إشارة: وجاء من هذا النوع في النثر قول ابن إسحاق: «أليست هذه أتانك.»[3]

4- الاسم مركب إضافي: وجاء منه في الشعر قول كثير عزة:

ألـــيس أبـــي بالصـــلتِ أم لـــيس إخـــوتي

لكـــلِّ هَجَـــانٍ مـــن بنـــي النَّضـــرِ أزهـــرا [4]

وجاء من النثر قول ابن إسحاق: «وكان اسمُ سبأ عبدَ شمس»[5]، وقوله: «وكان اسمُ الفيلِ محمودا.» [6]

---

(1) السيرة (1/ 141،166).
(2) السيرة (19/4).
(3) السيرة (201/1).
(4) السيرة (130/1)، وانظر (200/2)، والصلت: هو الصلت بن النضر.
(5) السيرة (43/1).
(6) السيرة (85/1).

النمط الثالث: الاسم نكرة

قد يأتي اسم كان أو إحدى أخواتها نكرة، إذْ إنه لا يشترط في اسمها أن يكون معرفة، فقد يجتمع الاسم والخبر وهما نكرتان، ومثله: (ما كان أحدٌ أفضل منك).

قال سيبويه: «هذا باب تخبر فيه عن النكرة بنكرة، وذلك قولك: (ما كان أحدٌ مثلك، وما كان أحدٌ خيراً منك، وما كان أحدٌ مجترئا عليك)، وإنما حسن الإخبار ههنا عن النكرة حيث أردت أن تنفي أن يكون في مثل حاله شيء أو فوقه؛ لأن المخاطب قد يحتاج إلى أن تعلمه مثل هذا.»[1]

والمسوغات هنا هي التي في باب الابتداء، ومن أهمها استطالة اسم (كان) بأحد أنواع الاستطالة، أو تقديم الخبر إذا كان شبه جملة والاسم نكرة.

ومن ذلك في السيرة النبوية قول ابن إسحاق: «وكانت بقباءَ امرأةٌ لا زوجَ لها»[2]، فقد سوغ تقديم الخبر - وهو شبه الجملة (بقباء) - الابتداء بالنكرة، وجاءت أيضاً هذه النكرة موصوفة، ولو لم يتقدم الخبر شبه الجملة في الجملة لم يتعين الخبر، وقد تأتي النكرة غير موصوفة، وتعتمد على تقديم الخبر شبه الجملة، والضابط لكل ذلك الإفادة، فيجوز الابتداء بالنكرة ما أفادت.

ومن مجيء اسم إحدى أخوات (كان) نكرة قول حسان بن ثابت:

وكانـــــت لا يـــــزالُ بهـــــا أنـــــيسٌ

خِـــــلالَ مُروجِهـــــا نَعَـــــمٌ وشـــــاءُ[3]

وأشار سيبويه إلى أن الذي حسّن الإخبار عن النكرة إرادة النفي، وهذا مسوغ من مسوغات الابتداء بالنكرة، وقد جاء منه في السيرة من الشعر قول ورقة بن نوفل:

رشـــدْتَ وأنعمـــتَ ابـــن عمـــرو وإنمـــا

تَجَنَّبـــتَ تَنُّـــوراً مـــن النـــارِ حاميـــا

بـــــدَينِكَ ربـــــاً لـــــيس ربٌ كمثلـــــه

وتركِـــكَ أوثـــانَ الطـــواغي كمـــا هيـــا [4]

والكاف في (كمثله) صلة للتوكيد، ولم يأت مع ليس (مخصص)أي مسوغ؛ لأنها تفيد النفي، وهو مخصص للابتداء بالنكرة، ومنه في الحديث: (ليس صلاةٌ أثقلَ على المنافقين من الفجر والعشاء) [1]، وهي تفيد النفي المستغرَق به الجنس.[2]

---

(1) الكتاب (54/1).
(2) السيرة (107/2).
(3) السيرة (70/4)، وانظر (210/1).
(4) السيرة (268/1)، وانظر (74/4).

ويُلحق بهذا النمط نمط نادر، وقد جاء في السيرة النبوية في بيت حسان:

كـــــأن خبيئـــــةً مـــــن بيـــــت رأسٍ

يكـــــونُ مزاجَهـــــا عســـــلٌ ومـــــاءُ[3]

وقد اجتمع مع (كان) نكرة ومعرفة، فالأصل أن يكون المعرفة اسما لـ(كان) والنكرة خبراً لها، وقد البيت على خلاف الأصل عند النحاة، وقد ضعف سيبويه هذا التركيب [4]، ويرى ابن هشام أنّ في البيت قلبا. [5]

(1) أخرجه البخاري في (10) كتاب الأذان (34)، باب فضل العشاء في جماعة.
(2) شواهد التوضيح (140، 141).
(3) السيرة (71/4).
(4) الكتاب (48/1،49).
(5) مغني اللبيب (912).

المبحث الثاني

استطالة جملة (كان) وأخواتها

أولاً: التداخل:

الاستطالة في جملة كان وأخواتها شبيهة بالاستطالة في الجملة الاسمية، والتداخل في جملة كان يكون في الخبر، إما بالجملة الاسمية أو الفعلية وهو على أنواع:

1) التداخل بالجملة الاسمية:

فمن التداخل بالجملة الاسمية في ركن الخبر قول أمية بن أبي الصلت:

أمسى بنو عمّهم إذْ حَضَر البأ سُ أكبادُهم عليهمُ وَجِعةٌ[1]

فجملة (أكبادهم عليه وجعة) جملة اسمية في محل نصب خبرا لأمسى، ومن التداخل الذي فيه تقديم وتأخير قول ضرار بن الخطاب:

وذلك إنّا لا تزالُ سُيوفُنا

بهنَّ دمٌ مِمّن يُحارِبْنَ مائرُ [2]

ويلحق بالجملة الاسمية جملة الحرف الناسخ كقول ابن الزَّبَعْرى:

مما أتاني أنّ أحمد لامني

فيه فبتُّ كأنّني محمومُ[3]

فقد جاء خبر(بات) جملة (كأنّ) واسمها وخبرها.

- دخول الواو على خبر الفعل الناسخ: إذا دخلت الواو على خبر الفعل الناسخ تتكون عدة صور لتلك الجملة، وذلك هو الذي جعل النحاة يختلفون في هذه الواو بين المنع والجواز، فبعضهم يرى أنها زائدة، وبعضهم يرى أن الفعل يكون معها تاما، وتكون هذه الواو للحال، أو يكون الفعل ناقصا وخبره محذوف للضرورة.[4]

---

(1) السيرة (37/3).
(2) السيرة (16/3).
(3) السيرة (68/4).
(4) النحو الوافي (561/1).

والذي يترجح عند الباحث أن هذا التركيب مسموع عن العرب فكيف يمنع النحاة ذلك، وينبغي أن ينظر في التركيب من جهة المعنى والسياق، فهما اللذان يحددان كون الفعل ناقصا أو تاما، ومما جاء في السيرة من ذلك قول ابن إسحاق:

«فلما أصبحَ الناسُ ولا ماءَ معهم شكوا ذلك إلى رسول الله»[1]، وقوله: «فأصبح المتثاقلون وكل واحد منهم يتكلم بلغة الأمة التي بعث إليها.»[2]

فالجملة الأولى ذكرت في سياق الإخبار عن رسول الله ﷺعند ما مر بالحِجر وبات فيها فيتضح أن (أصبح) في الجملة الأولى تامة، والواو فيها واو الحال، ولا حذف في الجملة.

وأما الجملة الثانية فقد جاءت في سياق ذكر الحواريين الذين بعثهم عيسى عليه السلام إلى أماكن بعيدة فكرهوا ذلك... ثم شكا عيسى ذلك إلى الله، فحول الله لغتهم إلى لغة كل قوم بعثوا إليهم.

قال ابن إسحاق: «قالوا: وكيف يا رسول الله كان اختلافهم؟ قال: دعاهم لمثل ما دعوتكم له، فأمَّا من قَرَّب به فأحبَّ وسَلِم، وأمَّا من بَعُد به فَكَرِه وأبى، فشكا ذلك عيسى منهم إلى الله، فأصبحوا وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذي وُجِّه إليهم»[3] هذه رواية ابن إسحاق وما ذكرناه سابقاً من رواية ابن هشام.

ويفهم من ذلك أن الله حوّل لغتهم فصاروا يتكلمون بلغة القوم الذين بُعِثوا إليهم (فأصبح) تكون هنا ناقصة لا تامة، وتحمل معنى (صار)، والواو في الجملة قد تكون زائدة للتأكيد، وليس لها تأثير في بناء الجملة.

وبذلك يكون السياق والمعنى هما اللذان يحددان نوع هذه (الواو) وكل موضع بحسبه، ولا نستطيع أن نُعمِّم ما قاله النحاة في كل موضع.

2) التداخل بالجملة الفعلية

وهذا التداخل أنواع بحسب نوع الفعل:

أ) التداخل بجملة الفعل التام:

1. التداخل بالفعل المضارع التام: ومنه في الخبر قول قيس بن المسَخَّر اليعمري:

فـــوالله لا تنفـــكُّ نفســـي تلـــومُني علـــى مـــوقفي والخيـــلُ قابِعَـــةً قُبْـــلُ [4]

ومن النثر قولهﷺ: «فلا يزال التسبيحُ يهبطُ حتى ينتهيَ إلى السماءِ الدنيا.» [5]

وقد سبق الفعل المضارع في المثالين بفعل يدل على الاستمرار، و هو(لا تنفك، لا يزال)، وإذا سبق الفعل المضارع بفعل يدل على الاستمرار فإنه يدل على أن الفعل مضارع مستمر لم ينقطع [1].

---

(1) السيرة (176/4).
(2) السيرة (263/4).
(3) السيرة (263/4).
(4) السيرة (31/4)، وانظر(128/4)، قُبْل: جمع أقبل وهو الذي يميل عينه في النظر إلى جهة العين الأخرى.
(5) السيرة (244/1)، وانظر(1/ 386)، (177/4).

ومن هذا النوع من التداخل: «فكنتُ أكون فيها»[2]، وقد جاءت (أكون) تامة، ومنه: «وبها كانت تُكْني أمُّ حبيبةَ بنتِ أبي سفيان»[3]، والزمن في هذا البناء يدل الماضي المتجدد؛ لأن الماضي دخل على المضارع. [4]

2. التداخل بالفعل الماضي التام:

اختلف في الإخبار عن كان وأخواتها بجملة ماضية فعلها ماض، فمنع النحاة أن يكون خبر(صار) وما بمعناها كـ(ما دام، وما زال) وأخواتها فعلا ماضيا، مثل: (صار زيد عَلِم)؛ لأن هذه الأفعال تفيد استمرار الفعل واتصاله بزمن الإخبار، والماضي يفيد الانقطاع، فتدافعا من جهة المعنى لما فيه من تناقض[5]، ولكن ينبغي أن يقصر هذا على الأفعال الناسخة التي تفيد الاستمرار.

وأما غير تلك الأفعال فالراجح أنه يجوز وقوع الفعل الماضي خبرا لها من غير (قد)، واشتراط الكوفيين لها غير لازم[6]، وهي إذا دخلت فإنها تفيد معنى كالتقريب من الحال أو التقليل أو التحقيق.[7]

وقد جاء في السيرة النبوية مما اقترن فيه الخبر بـ(قد) مع الفعل الماضي قول حسان:

فإن كنتُ قد قلتُ الذي قد زَعَمتُمُ

فلا رَفَعَتْ سَوطِي إليّ أناملي [8]

و(قد) في البيت ليس لها علاقة بالزمن فهي تفيد التوقع، و البيت لحسان في الاعتذار مما نسب إليه في شأن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

ومن النثر قول ابن إسحاق: «وكان أبو حارثةَ قد شَرُفَ فيهم»[9]، و(قد) في هذه العبارة لا تفيد تقريب زمن الماضي إلى الحال؛ لأنها مما قيل عن أبي حارثة أحد أساقفة نصارى نجران الذين وفدوا على النبيﷺ، والعبارة حكاية عن مكانته التي كانت فيهم، فالزمن فيها ماض بعيد، وقد هنا تفيد تحقق وقوع الفعل.

وأما من دلالة (قد) على تقريبها الحال فكما في قول ابن إسحاق: «وقد كان العباس بن عبد المطلب لقيَ رسول الله ﷺ ببعض الطريق»[10]؛ وذلك لأن العباس لقي النبي ﷺ وهو في طريقه إلى مكة للفتح، فالزمن بحسب ما يدل عليه السياق ماض قريب.

---

(1) معاني النحو (288/3).
(2) السيرة (189/4).
(3) السيرة (9/4).
(4) الفعل والزمن، د.عصام نور الدين، المؤسسة الجامعية - بيروت، ط1/1984م، (89).
(5) همع الهوامع (113/1).
(6) السابق (113/1).
(7) البرهان في علوم القرآن (305/4).
(8) السيرة (335/3)، انظر(47/3).
(9) السيرة (186/2).
(10) السيرة (48/4).

ومما لم يقترن فيه الفعل الماضي بقد مع (كان) من الشعر قول علي بن أبي طالب:
فأمســـــى رســـــولُ اللهِ قـــــد عـــــزَّ نصـــــرُه

وكـــــان رســـــولُ اللهِ أَرسِـــــلَ بالعـــــدلِ[1]

ومن النثر قول ابن إسحاق: «وكان سأبورُ ذو الأكتاف.. غزا ساطرونَ ملك الحضر.»[2]، ومجيء الفعل الماضي من غير (قد) يدل على أنه للماضي البعيد المنقطع. [3]
[3]

- كان الشأنية: من أقسام كان الناقصة كان الشأنية، وعرّفها النحاة بأنها «هي التي يأتي اسمها ضميراً محذوفاً ويسمى ضمير الشأن، وخبرها جملة مفسرة لذلك الضمير، وهي فعلية فعلها ماض أو مضارع، أو اسمية من مبتدأ وخبر.»[4]
واختلف في كان هذه أناقصة هي أم تامة، قال الرضي: «وقال بعضهم (كان) المضمر فيها الشأن تامة، فاعلها ذلك الضمير، أي: وقعت القصة، ثم فسرت القصة بالجملة.. والأول - أي كونها ناقصة - أولى.»[5]
أما تفسير الشأن بجملة فليس لازماً كما قاله النحاة، فقد يفسر بمفرد، فقد وردت كان وضميرها للشأن ولم يفسر بجملة وقد جاء من القرآن الكريم:{ لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمْ الشُّقَّةُ }.[6]
ومن شعر حسان في السيرة النبوية:
كانـــــتْ علالـــــةَ يـــــومَ بطـــــنِ حُنـــــينٍ

وغـــــداةَ أوطـــــاسٍ ويـــــومَ الأبْـــــرَقِ[7]

فيجوز في (علالة) أن تكون خبرا لكان، واسم كان ضمير القصة، أو هو ضمير عائد على شيء تقدم ذكره، ويجوز أن تكون (كان) تامة في البيت و(علالة) فاعل لها مرفوع. [8]

---

(1) السيرة (14/3)، وانظر (11/3، 38).
(2) السيرة (106/1).
(3) اللغة العربية معناها ومبناها (245).
(4) الأمهات في الأبواب النحوية، د.حسن أحمد لقمان، المكتبة المكية، مؤسسة الريان، ط1/ 2004م، (134).
(5) شرح الرضي (190/4).
(6) التوبة (42).
(7) السيرة (139/4).
(8) الروض الأنف (160/4).

وفي حالة تفسير ضمير الشأن بجملة أسمية أو فعلية يكون في الجملة تداخل، ومن ذلك في السيرة قول ابن إسحاق: «وكان قد احتملَ ناسٌ من المسلمينَ قتلاهُم إلى المدينة»[1]، فقد فسر ضمير الشأن في الجملة بجملة فعلية فعلها ماض، والزمن في العبارة كما يدل عليه السياق هو الماضي القريب.

ب) التداخل بجملة الفعل الناقص:

قد يأتي الفعل الناسخ خبراً لفعل ناسخ مثله، وهو من صور التنازع ومنه قول ابن إسحاق: «وكان لا يزال يقدم علينا تاجراً»، [2] وقد وردت هذه العبارة عند ذكر قوم للعباس للعباس بن عبد المطلب، والزمن فيها ماض مستمر.

ومن مثل هذا التركيب في السيرة أيضا: «وكانت لا تزالُ بيننَا وبينهم شرورٌ»[3]، والزمن في الجملة هو الماضي المستمر، وجاء ذلك من اندماج الفعليين (كان، ولا تزال) في هذا التركيب، ومن هذا التداخل قول حسان بن ثابت:

وكانـــــت لا يـــــزالُ بهـــــا أنـــــيسٌ

خِـــــلالَ مُروجِهـــــا نَعَـــــمٌ وشـــــاءُ [4]

ومن هذا التداخل قول الزبير بن عبد المطلب:

و قـــــد كانـــــت يكـــــونُ لهـــــا كشـــــيشٌ

وأحيانـــــاً يكـــــونُ لهـــــا وِثـــــابُ[5]

والزمن في البيت يدل على الماضي المتجدد، ومنه في النثر قول ابن إسحاق: «وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عدداً و مدداً»[6] يعنى الملائكة.

---

(1) السيرة (109/3).
(2) السيرة (53/2).
(3) السيرة (248/1).
(4) السيرة (70/4).
(5) السيرة (234/1).
(6) السيرة (245/2).

3) التداخل بالموصول وصلته:

ومن هذه الاستطالة في الشعر قول كعب الأشرف:

وصـــــار الـــــذي أَثَـــرَ الحـــــديثَ بطعنـــــةٍ

أو عـــــاش أعمـــــى مُرْعَشـــــاً لا يَسْـــــمَعُ [1]

ومن النثر قول سلمة بن سلامة بن وقش: «ألستَ الذي قلتَ لنا فيه ما قلت؟»[2]

4) التداخل بالمصدر المؤول:

ومما جاء التداخل فيه بالمصدر المؤول على التأخير والتقديم قول حسان:

بـــــــدمٍ عانِـــــــكٍ وكـــــــان حفاظـــــــاً

أن يقيمـــــــوا إنَّ الكـــــــريمَ كـــــــريمُ [3]

ومن النثر قول ابن إسحاق: «وأنّه ليس عليهم أنْ يسيرَ بهم إلى عدوهم من بلادهم»[4]، وقوله: «وكان الذي هاج مابين بني بكر وخزاعة أنّ رجلاً من بني الحضرميّ خرج تاجراً، فلما توسط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه.»[5]

5) التداخل بجملة معترضة:

والاعتراض من سنن العرب، ولا يكون هذا الاعتراض إلا مفيدا ومضيفا شيئا للمعنى إما تقويةً أو تسديداً أو تحسيناً[6]، فمما جاء في السيرة من التداخل بالاعتراض في الشعر قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

فـــــآمن أقـــــوام بـــــذاك وأيقنـــــوا

فأمسـوا ـ بحمـد الله ـ مجتمعـي الشَّـملِ[7]

ومن النثر قول ابن إسحاق: «وقد كان رسول الله - ﷺ - حين مر بالحجر نزل بها»[8]، وقوله: «فكان تبع ـ فيما يزعمون ـ أول من كسا الكعبة.» [9]

---

(1) السيرة (58/3)، وانظر (265/1).
(2) السيرة (249/1)، انظر (159)، (203/4).
(3) السيرة (167/3)، وانظر (199/4).
(4) السيرة (227/2)، وانظر (37/4).
(5) السيرة (37/4).
(6) الصاحبي لأحمد بن فارس، تح: السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي، القاهرة، ط 1953م، (414).
(7) السيرة (14/3).
(8) السيرة (175/4).
(9) السيرة (57/1)، وانظر (337/3).

6- التداخل بجملة مضافة إلى ظرف مفتقر إليها:

ومن هذا التداخل قول أبي شريح الخزاعي: «إنّا كنّا مع رسول الله ﷺ حين افتتح مكة»[1] فقد جاء الظرف (حين) مضافا إلى جملة فعلية لافتقاره إليها.

ثانيا: الاستطالة بالامتداد في جملة (كان) وأخواتها:

تعرف الجملة الممتدة بأنها الجملة المكونة من مركب إسنادي واحد (مسند ومسند إليه) وما يرتبط بالعنصرين أو بأحدهما من مفردات أو مركبات غير إسنادية.[2]

1) الامتداد بشبه الجملة:

الامتداد هنا يكون بتعلق شبه الجملة بأحد عنصري الاستناد، ومنه في الشعر قول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

فأصبحَ أحمدُ فينا عزيزاً

عزيزَ المقامةِ والموقِفِ [3]

فـ(فينا) متعلق بـ(عزيزا) وهو مقدم عليه، ومنه في النثر قوله ﷺ: «قد كُنْتُ لهذا كارهاً»[4]، فالجار والمجرور (لهذا) متعلق بـ(كارهاً).

وقد يجتمع الظرف والجار والمجرور زيادة في التقييد، ومنه قول عبد الله بن عبد المطلب: «فليس لي بكِ اليوم حاجةٌ»، [5]وقد يتعدد الجار والمجرور، ويكون هذا التعدد حينئذ تنوعا للقيود في الجملة، ومن تعدد هذا الامتداد ما جاء في بيت أبي سفيان:

ومازالَ مُهْرِي مَزْجَرَ الكلبِ مِنهمُ

لَدُنْ غدوةً حتى دنت لغروبِ[6]

فقد اجتمع قيدان الجار والمجرور (منهم) والظرف والمضاف إليه (لدن غدوة).

2) الامتداد بالمشتق ومتعلقاته:

وتمتد الجملة بالمشتق وما يتعلق به من معمولات، ومن ذلك قول بحيرى: «فإنه كائنٌ لابن أخيك هذا شأنٌ عظيم»[7]، (فكائن) اسم فاعل من (كان) وهو يعمل عملها بشروط

---

(1) السيرة (64/4).
(2) الجملة العربية تحليلها وأنواعها (136).
(3) السيرة (218/3).
(4) السيرة (206/3).
(5) السيرة (194/1).
(6) السيرة (84/3).
(7) السيرة (220/1).

بشروط فعله المعروفة[1]، وقد جاء الخبر مقدماً والاسم مؤخراً، و(عظيم) نعت للنكرة وهو قيد لها، ومن هذا النوع قول كعب بن أسد القرظي: «فلست بناقضٍ ما بيني وبينه»[2]، فـ (ما بيني) مفعول لاسم الفاعل (ناقض) ومنه:

وَلَسْتُ بِخالعٍ عنّي ثيابي

إذا هزّ الكُمَاةُ ولا أَرامِي[3]

فاسم الفاعل (خالع) نصب مفعولاً به وهو(ثيابي) وتعلق به الجار والمجرور (عني) وأدى كل ذلك إلى امتداد الجملة، ومما جاء الامتداد فيه بالمشتق وبالمفعول فيه، قول أعشى بني قيس بن ثعلبة:

لـه صدقاتٌ ما تُغِبُّ ونَائِلٌ

وليس عطاءُ اليومِ مانِعَه غدا[4]

قال السهيليّ: «هو برفع عطاء ونصب (مانع) ومعناه: ليس العطاء الذي يعطيه اليوم مانعاً له غداً من أنْ يعطيه، فالهاء عائدة على الممدوح، فلو كانت عائدةً على العطاء، لقال: وليس عطاء اليوم ما نعه هو، بإبراز الضمير الفاعل، لأن الصلة إذا جرت على غير من هو له برز الضمير المستتر بخلاف الفعل»[5]، ومن هذا الامتداد قول حسان:

وأمست بلادُ الحُرْم وحشاً بقاعُها

لِغَيْبَةِ ما كانتْ من الوحي تَعْهَدُ[6]

فقد عملت (وحشاً) وهي صفة مشبهة باسم الفاعل عمل الفعل، وجاء فاعلها (بقاعها)، «والصفة المشبهة تدل على الثبوت والاستمرار، ومعمولها يأتي للإيضاح والإبانة بعد الإبهام.»[7]

3) الامتداد بالنعت:

يأتي النعت لوظيفة تكون غالبا في تتميم معنى في منعوته، وهذه الوظيفة معنوية يقتضيها السياق، وتكون إما تخصيصاً أو إيضاحاً أو مدحاً أو ذماً أو ترحماً أو توكيداً أو

---

(1) شرح الرضي على الكافية (240/1).
(2) السيرة (243/3).
(3) السيرة (82/4).
(4) السيرة (425/1).
(5) الروض الأنف (132/2).
(6) السيرة (326/4).
(7) الجملة العربية والمعنى (282).

تفصيلاً [1]، وقد يتعدد النعت فيجعل الجملة طويلة بالتعدد، ومن الامتداد بالنعت قول ابن إسحاق: «وكانت خديجة بنت خويلد امرأةً تاجرةً ذاتَ شرفٍ ومالٍ.»[2]

وقد يتعدد النعت بالجمل وأشباهها كقول ابن إسحاق: «وكان لِحِمْيرَ وأهلِ اليمنِ بيتٌ بصنعاءَ يقال: له رِئام»[3]، إذ جاءتا شبه الجملة (بصنعاء) والفعلية (يقال له) للتخصيص والإيضاح.

ومن ذلك قول ورقة بن نوفل: «وأنّه كائنٌ لهذه الأمةِ نبيٌ ينتظر هذا زمانه»[4]، و(كائن)اسم الفاعل من (كان)، وقد سماه الكوفيون الفعل الدائم[5]، وهم يريدون به أنه يدل على الزمن الدائم، وليس ذلك صحيحا لأنه لا يوجد فعل دائم من أفعال البشر، فالزمن هو وظيفة في السياق، والزمن في العبارة السابقة كما يستفاد من السياق هو المستقبل القريب، لدلالة (هذا زمانه) على ذلك.

4) الامتداد بالعطف:

والعطف تمتد به الجملة «ويكون مقيداً للمعطوف، والتقييد في تبعية العطف آت من أن المعطوف عليه غير مطلق في انفراده بالحكم الذي يكون له»[6]، ومن هذا الامتداد قول ابن إسحاق: «وكان رسولُ الله وحمزةُ وأبو سلمةُ بن عبد الأسلميّ إخوةً من الرَّضاعة»[7]، والعطف فيما سبق جاء على صورة عطف اسم على اسم.

وهناك صورة أخرى للعطف هي عطف ضمير على ضمير، وقد ارتبط بها مسألة خلافية، فالكوفيون أجازوا العطف على ضمير الرفع المتصل في اختيار الكلام، وأشار ثعلب إلى ذلك بقوله: «عبد الله حدّثني وعمرو، يكون نسقا على ما في حدثني، وليس على الأول».[8]

واحتجوا بمجيء ذلك في كتاب الله وفي كلام العرب، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ [9] فعطف (هو) على الضمير المرفوع المستكن في (استوى) والمعنى استوى جبريل ومحمد بالأفق: وهو مطلع الشمس.»[10]

واحتجاج الكوفيين بهذا فيه نظر؛ لأنه ليس المراد بالضمير النبي ﷺ، وإنما المراد به جبريل في الآيتين على الأصح[1]، ولا يكون ذلك من باب العطف بل تكون الواو للحال.

---

(1) في بناء الجملة (87).
(2) السيرة (224/1)، (225).
(3) السيرة (122/1).
(4) السيرة (228/1).
(5) الإيضاح في علل النحو، لأبي القاسم الزجاجي، تح: مازن المبارك، دار النفائس، ط4/ 1982م، (86)، ومجالس العلماء لأبي القاسم الزجاجي،تح: عبد السلام محمد هارون، الكويت، ط1962م، (318).
(6) في بناء الجملة (91).
(7) السيرة (107/3).
(8) مجالس ثعلب (141/1).
(9) النجم (6، 7).
(10) الخصائص (204/2).

وقد استدل ابن مالك في شواهد التوضيح تأييداً لمذهب الكوفيين بقوله:ﷺ (كنت وأبو بكر وعمر)، (وفعلت وأبو بكر وعمر)، (وانطلقت وأبو بكر وعمر) [2] وكذلك حديث (كنت وجار لي من الأنصار)[3]، فقد تضمنت الأحاديث السابقة صحة العطف على ضمير الرفع المتصل غير المفصول بتوكيد أو غيره، وهو ما يجيزه جمهور البصريين في النثر على ضعف، ويرون أن بابه الشعر.[4]

والراجح أن الوجهين جائزان، فقد جاءا في السيرة، فمما جاء مع فاصل التوكيد قول عمرو بن الجموح:

والله لـــــو كُنـــــتَ إلهـــــاً لـــــم تَكُـــــنْ

أنـــت وكلـــبٌ وســـطَ بِئْـــرٍ فـــي قَـــرَن[5]

ومن النثر قول العاص بن وائل: «فوالله لا تكونُ أنت وصاحبكُ ـ يا خبّابُ ـ آثرُ عند الله منى»[6]، وهذه العبارة تفيد الزمن المستقبل بحسب السياق.

ومما جاء فيه العطف على الضمير المستتر من غير فاصل توكيد في السيرة قول أمية بن أبي الصلت:

فقلـــت لـــه يـــا اذهـــبْ وهـــارونُ فـــادعوا

إلـــى اللهِ فرعـــونَ الـــذي كـــان طاغيـــاً [7]

حيث عطف (هارون) على الضمير المستتر في(اذهب) بدون فاصل توكيد، وقد وسمه السهيلي بالقبيح قال: (اذهب وهارون) عطفاً على الضمير في اذهب، وهو قبيح إذا لم يؤكد ولو نصبه على المفعول معه لكان جيدا.»[8]

وفاعل الأمر (اذهب) في البيت ضمير مستتر وجوباً عند النحاة، وإذا أردنا أن نعطف عليه فلا بد من إظهار الضمير عند جمهور البصريين، وإذا ظهر فانه لا يعرب عندهم فاعلاً، بل هو توكيد.

والراجح أنه يجوز في المسألة الوجهان، فإذا أردت معنى التأكيد أظهرت الضمير قبل حرف العطف، ويكون هو الفاعل مع ما يضيفه من التأكيد، و إذا لم ترد التأكيد عطفت من دون إظهار للضمير.

---

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، دار المعرفة، بيروت، ط1/ 1987م، (265/4).
(2) أخرجه البخاري من حديث علي رضي الله عنه في(62) كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ.
(3) أخرجه البخاري من كلام عمر بن الخطاب ﷺ في (46) كتاب المظالم والغصب.
(4) شواهد التوضيح (114).
(5) السيرة (66/2).
(6) السيرة (395/1)، وانظر(211/2)،(246/3).
(7) السيرة (264/1).
(8) الروض الأنف (260/1).

5) التوكيد:

ارتبط بـ(عطف الضمير على الضمير) مسألة توكيد الضمير، وقد حدد العلماء عدداً من الصيغ الفعلية التي يأتي الضمير فيها مستتراً وجوباً هي:

الأول: فعل الأمر للواحد المخاطب كـ(افعل) والتقدير أنت، وهذا الضمير لا يجوز إبرازه؛ لأنه لا يحل محل الظاهر، وأما (افعل أنت) فـ(أنت) توكيد للضمير المستتر في افعل وليس بفاعل للفعل، لصحة الاستغناء عنه.

الثاني: الفعل المضارع الذي في أوله همزة نحو أوافق، فإن قلت (أوافق أنا) كان (أنا) تأكيداً للضمير المستتر.

الثالث: الفعل المضارع الذي في أوله النون نحو (نغتبط).

الرابع: الفعل المضارع الذي أوله التاء لخطاب الواحد نحو (تشكر).[1]

والذي يترجح أن هذه الضمائر إذا ظهرت تعرب بحسب موقعها، ومن ذلك في السيرة النبوية قوله ﷺ: «هلاّ تركتَ الشيخَ في بيته حتى أكونَ أنا آتيه فيه»[2]، والزمن في (أكون) للمستقبل لدلالة (حتى) على ذلك، ومنه قوله ﷺ: «فكن أنت الذي تدخل بها»[3]، ومعنى التوكيد الذي ذكره النحاة هنا مفهوم من السياق، ولا يوجد له في التركيب عنصر يقوم بهذه الوظيفة، ويكون هذا الضمير هو الفاعل.

وإنما يكون الضمير للتوكيد المحض إذا أُكّد في حالة بروزه، ومنه في السيرة قول حليمة السعدية: «فركبت أنا أتاني»[4]، فقد أُكّد الضمير المتصل في الفعل بالضمير المنفصل(أنا).

6) الامتداد بالبدل:

البدل من العناصر التي تمتد بها الجملة، وهو يتعلق باسم يكون مبدلا عنه، والبدل يكون هو المقصود بالحكم في المقام الأول، ويكون المبدل منه معبرا إليه، ولا يعني ذلك أن المبدل منه غير ضروري في الجملة؛ إذ لا يأتي البدل إلا مقرونا به، ولا تتضح وظيفة أحدهما من دون وجود الآخر، فهما متلازمان، مثل: (حضر الوزير عمر)، فالبدل يفيد التعيين، فلو قلنا: حضر الوزير، لم يُعرف من المقصود، ولو قلنا: (حضر عمر)، لم تعرف صفته، فالبدل يعين المبدل منه، ويحدده بالصفة المنسوبة إليه من المبدل منه.[5]

ومما جاء فيه الامتداد بالبدل قول ابن إسحاق: «وكانت هاجرُ أمُّ إسماعيلِ منهم»[6]، وقول العاص بن وائل: «أليس يَزْعمُ محمدٌ صاحبُكم هذا الذي أنت على دينه أنَّ في الجنةِ ما يبتغي أهلُها من ذهبٍ وفضةٍ.»[1]

---

(1) شرح ابن عقيل (79/1).
(2) السيرة (54/4).
(3) السيرة (55/4).
(4) السيرة (200/1).
(5) شرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهري، دار إحياء الكتاب العربي، ومطبعة عيسى البابي البابي - القاهرة،د.ت (155/2)، الجملة العربية تحليلها ومكوناتها (137).
(6) السيرة (39/1).

7) الامتداد بالحال:

«ومن العناصر المقيدة للفعل من غير المفعولات الحال، فيقال للحال: هو مفعول مع قيد مضمونه ؛ إذ المجيء في (جاءني زيد راكباً) فعل مع قيد الركوب الذي هو مضمون راكباً»[2]، ومما جاء في السيرة مقيداً بالحال من الشعر قول معاوية بن زهير بن قيس:

كَدَأْبِهِمُ بِفَرْوةَ إِذْ أَتاهُمْ ... فَظَلَّ يُقادُ مكتوفاً بضَفْر[3]

فـ(مكتوفاً) حال من الضمير المستتر نائب الفاعل في (يقاد)، ومن النثر ما نسبه ابن إسحاق إلى مهاجري الحبشة: «ونقول - واللهِ - ما قال اللهُ وما جاءنا به نبيُّنا كائناً في ذلك ما هو كائن.»[4]

فـ(كائناً) حال وهو اسم فاعل من كان واسمها ضمير مستتر فيه تقديره (هو) يعود على الشيء السابق (في ذلك) جار ومجرور متعلق (بكائن)، (ما) نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب خبر(هو كائن)جملة اسمية في محل نصب، صفة لـ (ما).[5]

8) الامتداد بالتمييز:

والتمييز من المكملات عند النحاة، فيأتي لتكميل الجملة، وقد يستقيم الكلام بدونه لكن يظل مبهما، ويحتاج إلى ما يزيل إبهامه، ولهذا فإن وظيفة التمييز إزالة الإبهام المتعلق بالمفرد في الجملة[6]، ومن ذلك في السيرة قول أروى بنت عبد المطلب:

وكان هو الفتى كرماً وجوداً ... وبأساً حين تنْسكبُ الدِّماءُ[7]

ومن النثر قوله ﷺ: «لو كان لك أُحُدٌ ذهباً ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي...»[8]، وقول ابن إسحاق: «وكانوا خمسة عشر رجلاً»[9]، وقوله: «وكان من أحدث القوم سناً.»[10]

---

(1) السيرة (395/1)، وانظر (3/ 79).
(2) في بناء الجملة (84،83).
(3) السيرة (41/3)، والضفر:الحبل المضفور.
(4) السيرة (375/1).
(5) النحو الوافي (551/1).
(6) المصطلحات النحوية (215).
(7) السيرة (210/1).
(8) السيرة (80/4).
(9) السيرة (75/3).
(10) السيرة (376/1).

المبحث الثالث

عوارض بناء جملة(كان) وأخواتها

أولا: تغيير الرتبة

الأصل في الرتبة في هذا الباب تقدم الفعل ثم مجيء الاسم ثم الخبر، وتتغير هذه الرتبة ويأتي ذلك على صور ترددت عند العلماء بين المنع والجواز، وهذه الصور هي:

أ) توسط الخبر:

يجيز النحاة توسط الخبر بين الفعل والاسم مع جميع هذه الأفعال، وقد منع بعضهم التوسط مع (ليس) و(مادام)، والجمهور على الجواز.[1]

ب) تقدم الخبر على الفعل والاسم:

يجيز النحاة تقدم الخبر على الفعل الناسخ والاسم قياسا على المفعول، إذ يجوز تقديمه على الفعل، [2]ويستثنون من هذا الحكم (مادام)؛ لأن معمول صلة الحرف المصدري(ما) لا يجوز أن يتقدم عليه، وفي تقدم خبر(ليس) على الفعل والاسم خلاف.[3]

والراجح أن ما يظهر بناؤه في السياق على إحدى هذه الصور فلا إشكال فيه، وقد جاء ذلك عن العرب، وأما (مادام) فإن السياق لا يحتمل معها تقديم الخبر على الفعل ؛ لأن المعنى لا يتضح، ولأنها تربط جملة لاحق بأخرى سابقها، والتقديم هنا يفسد المعنى ؛لذلك قال النحاة بالمنع، فتغير الرتبة منحصر في تقدم الخبر على الاسم، أي (توسط الاسم)، وتقدم الخبر على الفعل والاسم، وتقديم معمول الخبر عليه أو على الاسم أو علي الفعل الناسخ.

وقد حدد العلماء مواطن التقديم والتأخير الواجبة كما يأتي:

1. تأخير الخبر وجوبا: يجب تقديم اسم كان وتأخير خبرها أي بقاء الترتيب على الأصل في موضعين:
   - أن يكون إعراب الاسم والخبر جميعاً غير ظاهر، بان يكونا معربين تقديراً نحو قولك: (كانَ موسى فتاك)، أو يكونا مبنيين، نحو قولك: (كان هؤلاء من يجادلك).
2. توسط الخبر: يتوسط الخبر بين الفعل والاسم وجوباً في موضعين:
   - أن يكون الخبر محصوراً في الاسم نحو قولك: (ليس قائماً زيدٌ).
   - أن تصل بالاسم ضمير يعود على بعض الخبر نحو قولك: (كان في الدار صاحبها).

---

(1) شرح الرضي على الكافية (242/1)، شرح التصريح (244/1).

(2) كتاب الفصول في العربية لابن الدهان النحوي، تح: د.فائز فارس، مؤسسة الرسالة، ط1/ 1988م، (16).

(3) شرح الألفية لابن الناظم، تح: عبد الحميد السيد، بيروت- دار الجيل، د.ت، (54).

3. جواز الأمرين: تقديم اسمها على خبرها وتأخيره وذلك فيما عدا ما يجب فيه التوسط أو التأخير.[1]

وأكثر الحالات التي جاءت في السيرة النبوية ما تقدم الخبر فيه وجوباً وهو شبه جملة والمبتدأ نكرة، ومنه قول ورقة بن نوفل: «سيكون في هذه الأمةِ نبيٌ»[2]، ومن التقديم الجائز في السيرة النبوية من الشعر قول عبيدة بن الحارث بن المطلب:

ومـــا كـــان مكروهـــاً إلـــيَّ قتـــالهُم

غـداةَ دعـا الأكفَـاءَ مـن كـان داعيـا [3]

ومن النثر قول ابن إسحاق: «ثم كان أولَ ذَكَرٍ من الناس آمن برسول الله (ﷺ)... عليُّ بن أبي طالب.»[4]

من مسائل تغيير الرتبة في السيرة:

1. تقديم الخبر إذا كان جملةً على الاسم:

لا يجيز النحاة تقدم خبر الناسخ إذا كان جملة لا على الاسم ولا على الفعل، سواءٌ كانت الجملة اسمية مثل: (كان عليٌّ أبوه قائم)، أو فعلية فيها ضمير الاسم مثل: (كان عليٌّ يقوم)، أو غير رافعة للضمير مثل: (كان عليٌّ يمر محمودٌ به)، لعدم سماعه.[5]

والراجح أن هذا التركيب محكوم بالسياق والمعنى، فإذا اتضح فيه المعنى فلا إشكال فيه، وأما قولهم بأنه غير مسموع فلا أظن أن النحاة قد سمعوا كل ما قالته العرب، وقد جاء من مثل هذا التركيب في السيرة النبوية، ويظهر فيه تقدم الخبر وهو جملة فعلية على الاسم، ومن ذلك قول عمرو بن الحارث بن عمرو بن مضاض:

وتبكـــي لبيـــتٍ لـــيس يُـــؤْذَى حمامُـــه

يظـــلُّ بـــه أمنـــاص وفيـــه العصـــافِر[6]

ومنه قول عبد الله بن وهب بن تميم:

فـــإن تـــك قـــيسُ عَـــيلانٍ غِضـــاباً

فـــلا ينفـــكُّ يُـــرغِمُهم سَـــعُوطي[1]

---

(1) أوضح المسالك (242/1).
(2) السيرة (194/1)،(106،122)
(3) السيرة (27/3)،(167)،(199/4).
(4) السيرة (282/1).
(5) همع الهوامع (118/1).
(6) السيرة (152/1).

والزمن المفهوم في البيتين هو المضارع المستمر.

2. تقديم الخبر على الناسخ والاسم:

مذهب الكوفيين جواز تقديم خبر (مازال) عليها وما كان في معناها من أخواتها[2]، وينسب ذلك إلى ابن كيسان أيضا، ومذهب البصريين عدم الجواز، قال الفارسي: «يضعف عند أصحابنا قائما كان زيدٌ»[3]، وينسب ذلك إلى الفراء أيضا.[4]

والراجح جواز تقديمه إذا لم يختل المعنى، ومنه في السيرة النبوية قول حسان:

ثـــــم جـــــودي للخزرجـــــيّ بـــــدمعٍ

ســـيداً كـــان ـ ثَـــمَّ ـ غيـــرَ نـــزور [5]

إذ قدم الخبر(سيدا) على الفعل (كان)، والتركيب الأصلي هو: كان سيدا.

ويقاس على هذا تقدم الخبر على الناسخ وهو جملة في سياق يدل على ذلك، وجاء ذلك في السيرة مما نسب ابن إسحاق إلى النبيﷺ: «يا أهل القليب، بئس عشيرةُ النبي كنتم لنبيكم»[6] فالسياق يحدد أن البناء الأصلي للجملة هو: كنتم بئس عشيرة النبي لنبيكم، وفي تقديم (بئس) تسليطٌ للمعنى على الذم.

3. تقديم المعمول على الاسم أو على الناسخ:

«لا يجيز البصريون إيلاء (كان) أو إحدى أخواتها معمول الخبر إلا إذا كان ظرفاً أو حرف جر نحو: (كان يومَ الجمعةِ زيدٌ صائماً)، و(أصبح فيك أخوك راغباً)، ولا يجوز عندهم في نحو: (كانت الحمى تأخذ زيداً)، ونحو: (كان زيدٌ آكلاً طعامَك)، أن يقال: (كانت زيد الحمى تأخذ)، ولا (كان طعامَك زيدٌ آكلاً)، ولا (كان طعامك آكلاً زيد)، وأجاز ذلك الكوفيون.»[7]

يوجد خلاف بين النحاة حول ما إذا تقدم معمول الخبر على الاسم، ويقصد به ما إذا كان الخبر فعلاً أو اسماً شبيهاً بالفعل وله معمول فجاء حينئذ بعد الفعل الناسخ مباشرة، مثل: (بات التلميذُ مؤدياً واجبه)، إذ يقال: (بات واجبَه التلميذُ مؤدياً).[8]

---

(1) السيرة (129/4)، السعوط: الدواء الذي يصب في الأنف، والمعنى على المجاز وليس الحقيقة.
(2) الإنصاف في مسائل الخلاف، م (17) (155/1).
(3) المسائل المنثورة، م(255)، (224).
(4) شرح الألفية لابن الناظم (54).
(5) السيرة (36/4)، (119/3).
(6) السيرة (251/1).
(7) شرح الألفية لابن الناظم (56).
(8) النحو المصفى (248).

والظاهر أن هذا الخلاف لا جدوى فيه، وأن تأويلات النحاة للنصوص التي وردت منه تأويلات متكلفة، فالذوق اللغوي والاستعمال يقبلانه ولاسيما في الشعر، وليس فيه إخلال بالمعنى.

وجاء كثيراً في السيرة النبوية توسط معمول الخبر وهو جار ومجرور، فمن النثر قول حاطب بن أبي بلتعة: «ولكنّني كنتُ امرأً ليس لي في القوم من أهلٍ ولا عشيرةٍ».[1]

وأما ما تقدم فيه معمول الخبر على الاسم والخبر، وذلك المتقدم جار ومجرور فمنه من الشعر قول عبيدة بن الحارث:

بِعُتْبَـــــةَ إذْ ولّـــــى و شيبـــــةَ بعـــــدَه

ومـــا كـــان فيهـــا بكـــرُ عتبـــة راضـــياً [2]

وأما ما تقدم فيه معمول الخبر وهو جار ومجرور على الناسخ فمنه في الشعر قول قيس بن المسخر اليعمري:

علـــــى أننـــــي آســـــيتُ نفســـــي بخالـــــدٍ

ألا خالـــدٌ فـــي القـــومِ لـــيس لـــه مِثْـــلُ [3]

ومن النثر قول ابن إسحاق: «ففيها كانت قريشُ تقضي أمورَها»[4]، والزمن الذي يدل عليه السياق هنا هو الماضي المتجدد.

4. تقديم الاسم على الفعل:

لا يجيز النحاة تقدم اسم الفعل الناسخ عليه، وحجتهم أن التركيب يكون حينئذ مبنيا على أنه جملة اسمية، والراجح أن التركيب مرتبط بالمعنى والسياق فلهما القدح المعلى في تحديد أركان الجملة، والأصل أن يقصر على ذلك، ومما ورد منه في السيرة النبوية: «فأين رأيُكم كان عنكم»[5]، والعبارة من كلام منسوب إلى شيخ من بني عامر بن صعصعة لم يذكر اسمه، فيظهر من هذا التركيب أن أصله: فأين كان رأيكم عنكم؟، فتقدم اسم كان عليها.

5. إقامة الضمير المنفصل مقام المتصل مع (كان):

لا يجيز النحاة العدول عن الضمير المتصل إلى الضمير المنفصل، وعلة ذلك عندهم أن المتصل أخصر من المنفصل، فلا عدول عنه إلا حيث لم يتأت الاتصال، وما جاء على ذلك فهو ضرورة.[6]

---

(1) السيرة (47/4).
(2) السيرة (27/3)، (118/4).
(3) السيرة (31/4).
(4) السيرة (162/1).
(5) السيرة (38/2).
(6) شرح ابن عقيل (81/1).

والراجح أن هذا التركيب جائز، فهو ثابت عن أفصح الخلق محمد ﷺ في الحديث في قوله « إنّ أبركم وأتقاكم لله أنا »[1] وقد جاء مثل هذا التركيب في السيرة النبوية مع (كان) قول الصحابي ثابت بن قيس خطيب المسلمين ﷺ: «ثم كان أولَ الخلق إجابة واستجابة لله حين دعاه رسول ﷺ نحن.»[2]، فقد انفصل الضمير (نحن) وهو اسم لكان متأخرا، وأصل التركيب: كنا أول الخلق إجابة.

فما سبق يشهد بجواز هذا التركيب، وإنما يعدل المتكلم إلى هذا التركيب لغرض الاهتمام والتوكيد، ويظهر أن العدول عن المتصل إلى المنفصل مرتبط بوجود اسم التفضيل في الجملة، أو ما يسمى بتركيب المقارنة، «إذ يختص هذا لا التركيب برتبة حرة نسبيا لا نجد ما يوافقها في تركيب آخر»[3]، والشواهد السابقة تدل على ذلك، ففي الحديث (أبركم - أتقاكم) هما اسما تفضيل وكذلك في عبارة السيرة (أول الخلق).

ثانيا: الحذف في جملة (كان):

أ) حذف خبر (ليس):

يجيز النحاة البصريون حذف خبر ليس إذا وجد في الكلام ما يدل عليه، واستدلوا بقول الشاعر:

وإذا جوزيـــــــت قَرضـــــــاً فـــــــاجْزِه

إنمـــا يَجْـــزي الفتـــى لَـــيس الجَمَـــل[4]

أي: ليس الجمل جازياً، وذهب الكوفيون إلى أنها هنا عاطفة بمنزلة (لا) فكأنه قال: (لا الجمل)[5].
الجمل)[5].

ومما جاء في السيرة النبوية شاهداً على حذف اسم ليس مع دلالة الكلام عليه قول نفيل بن حبيب الخثعميّ:

أيـــــن المفـــــر والإلـــــهُ الطالـــــبُ

والأشـــرمُ المغلـــوبُ لـــيس الغالـــبُ [6]

(1) صحيح البخاري، 2-كتاب الإيمان، 13- باب قوله ﷺ أنا أعلمكم بالله.
(2) السيرة (217/4).
(3) اللسانيات واللغة العربية، نماذج تركيبية،د. عبد القادر الفاسي الفهري، دار توبقال ـ الدارالبيضاء، ط3/ 1993، (184).
(4) البيت من شعر لبيد، انظر ديوانه،دار صادر ـ بيروت،ط1966م، (141).
(5) منثور الفوائد، لكمال الدين أبي البركات ابن الأنباري، تح: حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، ط1/1983م، (32).
(6) السيرة (87/1).

واستدل الكوفيون والبغداديون بهذا البيت على مجيء (ليس) حرف عطف، وخرج على أن (الغالب) اسمها والخبر محذوف، وقد أول على أنه في الأصل ضمير متصل عائد على الأشرم. أي: ليسه الغالب. كما تقول: (الصديقُ كأنَّه زيدٌ)، ثم حذف لاتصاله.[1]

وهذا فيه نظر إذ لوكان كذلك لكان (الغالب) منصوبا، والراجح أنها على أصلها وخبرها ضمير مقدر بعد الاسم، أي (ليس الغالب هو أو ليس الغالب الأشرم).

ب) حذف الاسم إذا كان الخبر ضميرا متصلا:

اختلف العلماء في خبر كان وأخواتها إذا كان ضميراً، فأجاز بعضهم الاتصال والانفصال قال ابن مالك:

وصلْ أوِ افْصِلْ هاءَ سَلْنيه وما ... أشبَهَهُ في كنْتُه الخُلْفُ انتمى[2]

واختلف في المختار منها فسيبويه يختار الانفصال[3]، وذهب ابن مالك إلى اختيار الاتصال[4]، ولكنه جعل الاتصال راجحاً، وذكر أن بعض النحويين جعلوه مرجوحا وقال:إنهم بذلك خالفوا القياس والسماع.

وذكر أن من مخالفتهم للسماع أن الاتصال ثابت في أفصح الكلام المنثور، واستدل بقوله ﷺ لعمر رضي الله عنه: «إن يكنه فلن تسلط عليه وإنْ لم يكنه فلا خير لك في قتله»[5].

وذكر شواهد من الشعر: وقال «لم يثبت الانفصال إلا في شعر قليل»، وما روي في السيرة النبوية يعد دليلاً أيضاً على اختيار الاتصال، وهو قوله ﷺ: «لا تعجل لعلّ الله يجعلُ لك صاحباً، فيطمع أبو بكر أن يكونَه.»[6]

---

(1) مغني اللبيب (390).
(2) ألفية ابن مالك، باب النكرة والمعرفة، البيت رقم(13) ط/دار الجنان،د،ت، (15).
(3) الكتاب (46/1).
(4) شرح ابن عقيل (83/1).
(5) شواهد التوضيح (28).
(6) السيرة (94/2).

ثالثا: زيادة (كان) وأخواتها:

زيادة (كان):

يجعل النحاة زيادة (كان) كالإلغاء في باب (ظن)، والشبه بينهما أن يلغى عمل الفعل وتبقى دلالته على معنى الكينونة في الزمن الماضي، مثل: ما كان أحسن زيدا، ومن كان ضرب زيدا؟، ومن كان يكلمك؟، فدلالة كان في هذه التراكيب مجرد الكينونة في الزمن الماضي، فليس لها اسم وخبر ولم يحدث إسناد بينها وبين اسم ؛ لذلك يطلق عليها النحاة مصطلح الزيادة، وهي بجانب ذلك تفيد توكيد الكلام. [1]

وللسياق أثره الكبير في تحديد نوع (كان) لاسيما المعني، قال الأنبارى: وتكون تامة نحو: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [2]، أي حدث ووقع، ولا يجوز أن تكون الناقصة لذهاب فضيلة عيسى عليه السلام، لأنه لا أحد إلا وقد كان في المهد صبياً». [3]

- أثر التلازم على زيادة (كان):

غالبا ما تأتي (كان) زائدة بين شيئين متلازمين، والتلازم هو: وجود علاقات نحوية بين شيئين يلزم احدهما الآخر ولا يأتي من دونه، ولا يشترط تواليهما في الكلام. [4]

فللتلازم بين عناصر بناء الجملة أثر في جعْل (كان) زائدة، وأغلب الحالات المذكورة من زيادة كان هي من مجيئها بين متلازمين، وهذا الذي جعل النحاة يقررون «أن زيادتها تكون في وسط الكلام، فلا تزاد أولاً خلافاً للجوهري، ولا آخراً خلافاً للفراء.» [5]

---

(1) شرح المفصل (150/7)، تخليص الشواهد (253).
(2) مريم (29).
(3) منثور الفوائد (28).
(4) شرح ابن عقيل (159/1)، والنحو المصفى، (254).
(5) الأمهات (144).

- معنى زيادة (كان):

قول النحاة بزيادة (كان) لا يعني أنها تأتي لغير معنى في الكلام البتة، وإنما لا يكون فيها إسناد، و تفيد الزمن الماضي المجرد، ولا تدل على حدث، وهذا ما أشار إليه سيبويه في: (ما كان أحسن زيدا)، فهي مجردة من الحدث وتدل على الزمن الماضي.[1]

- دلالة زيادة (كان) في السيرة:

1. دلالتها على الزمن المجرد:

فقد دلت كان حال زيادتها في السيرة على الزمن الماضي المجرد، وهو أكثر ما دلت عليه، فمن ذلك: زيادتها بين المبتدأ وخبره، ومنه قول معاوية بن زهير بن قيس:

فـــذلكَ كـــانَ صـــنعي يـــومَ بـــدر

وقبـــلُ أخـــو مـــداراةٍ عـــزوفُ[2]

ومنه زيادتها بين اسم إن وخبرها قول ابن إسحاق: «إنّه كان أول من غَيَّر دين إسماعيل»[3]، ومنه زيادتها بين الموصول وصلته قول حسان:

مـــن كـــان أمســـى وهـــو عمّـــا

أوقـــعَ الحِـــدثانِ جـــانِح[4]

فهي تدل على مضي الزمن الذي دل عليه الفعل(أمسى).

ومن الزيادة بين مفعولي (علم) ما نسبه ابن إسحاق إلى امرأة من بني النجار: «والله ما علمته كان يتركها»[5]، والزمن النحوي هنا الماضي المتجدد.

والزيادة بين قد والفعل الماضي التام ما نسبه ابن إسحاق إلى كفار قريش: «والله لقد كانَ صدَقَنا الذي حدثنا»[6].

والزمن هنا بحسب السياق هو الماضي القريب؛ لأن المعنى يدل عليه، ودلالة كان هنا مجرد الزمن، ومما يحمل فيه زيادة كان قول كعب بن مالك: «ولا والله ما كان لي من عذرٍ.»[7]

2. دلالتها على مجرد الكينونة:

---

(1) الكتاب (37/1).
(2) السيرة (42/3).
(3) السيرة (111/1)، وانظر (51/4).
(4) السيرة (172/3).
(5) السيرة (123/2)، (307/4).
(6) السيرة (97/2)، وانظر (57/4).
(7) السيرة (187/4).

وقد تزاد (كان) وتدل حينئذ على مجر الكينونة أي الحدوث المجرد، ومثل ذلك زيادتها بين النعت و منعوته في السيرة في قوله ﷺعن مكة المكرمة: «لا تَحِلُّ لأحدٍ كان قبلي، ولا تَحِلُّ لأحدٍ يكون بعدي.»[1]، فـ(كان) وإن جاءت على صيغة الماضي فهي تدل على مجرد الكينونة؛ لوجود كلمة(قبلي) الدالة على الزمن الماضي، و(يكون) تدل على مجرد الكينونة في زمن المستقبل الذي دلت عليه كلمة (بعدي).

وقد جاء في العبارة السابقة زيادة كان بلفظ المضارع في «ولا تحل لأحد يكون بعدي»، وقد نُقِل أن الذي وقع الاتفاق عليه بين النحاة زيادتها بلفظ الماضي، و قد نُقِل عن الفراء زيادتها بلفظ المضارع، [2] والقول الثاني أرجح لثبوته في السيرة.

ب) زيادة غير (كان):

«الجمهور على اختصاص (كان) بالزيادة دون سائر أخواتها، وحُكي عن الأخفش زيادة أصبح وأمسى، فقد حكي: ما أصبح أبردها، وما أمسى أدفأها، والضمير في أبردها ضمير غدوةٍ، وفي أدفأها ضمير عشيةٍ ولم يجر لهما ذكر»[3]، وأجاز الفراء زيادة جميع أفعال هذا الباب إذا لم يُنقض المعنى، وأجاز ابن جني زيادة أضحى وسائر أفعال هذا الباب، وكل فعل غير متعد من غير هذا الباب، إذا لم ينقض المعنى كذلك، [4] وهذا كله عند البصريين على تقدير ثبوته، من القلة بحيث لا يقاس عليه، فهو خارج عن القياس، لأن القياس في اللفظ الاّ يزاد، ولذا رده ابن السراج والجرمي وغيرهما، وحكي الجواز مذهباً للكوفيين.» [5]

ومن الأفعال التي يحتمل زيادتها (لا تزال) وهو خلاف لما قاله النحاة، وجاء منه في السيرة قول ابن إسحاق: «وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور»[6]

فالمعنى تام من دون (لا تزال) و إنما أفادت الاستمرار في الماضي، ومما يحتمل فيه زيادته (ظل) في الشعر قول كعب بن الأشرف:

ويقـــــولُ أقـــــوامٌ أَسَـــــرُّ بِسُـــــخْطهم

إنّ ابـــنَ الأشـــرفِ - ظـــلّ - كعبـــاً يَجْـــزَعُ [7]

فـ(ظل) زائدة؛ لأنها جاءت بين متلازمين وهما البدل والمبدل منه، ولا يعني أنه ليس لها معنى، فهي تدل على الاستمرار في الزمن الحاضر.

---

(1) السيرة (64/4).
(2) الأمهات (146).
(3) شرح الكافية الشافية لابن مالك، تح: عبد المنعم هريدي، مكة المكرمة، مركز إحياء التراث الإسلامي، ط1/ 1982م (411/1).
(4) الأمهات (122).
(5) السابق (141، 142).
(6) السيرة (248/1)، (70/4).
(7) السيرة (58/3).